وجهي الكئيب !

قصة المانية لهنريخ بل
ترجمة جورج سالم

كنت في المرفأ اتأمل تجوال طيور النورس حين لفت وجهي الكئيب انتباه واحد من رجال الشرطة كان يقوم بجولة في المنطقة . كنت مستغرقا في تأمل هذه الطيور التي تحوم باحثة عما تأكله : فكانت تعلو فجأة ثم لا تلبث ان تهبط يائسة . كان المرفأ مهجورا والماء لزجا يضرب لونه الى الاخضرار ، وكان الزيت المتسخ يشكل بقعة من الارض تسبح فيها شتى انواع الفضلات . لم يكن هناك اية باخرة ، بل كانت الروافع قد صدئت ، والمستودعات قد تهدمت . حتى ان الجرذان نفسها لم تكن تجتذبها الخرائب السود القائمة فوق الشاطيء . لم تكن تسمع اية جلبة ، لان العلاقات الخارجية كانت قد قطعت منذ اعوام مضت .

وتعلق نظري بأحد النوارس ، فرحت أتأمله في ذهابه وايابه ، كان يمس الماء اغلب الاحيان ، كأنه في اضطرابه حمامة تدافع العاصفة ، ولكنه كان يجرؤبعض المرات على التحليق ، فيلتحق في مسيره بباقي اخوته وهو يرسل صرخة حادة . ولو كان لي ان اتمنى امنية ما ، لتمنيت شيئا من الخبز اوزعه عليها ، فقد كان للفتات ، وان يك صغيرا ابيض، ان يحدد لطيرانها الحائر هدفا ، وينظمها ، كأنه شبكة من الخيوط تمدها يد انسان ، لا شك انني كنت انا ايضا جائعا ومتعبا ، ولكنني كنت سعيدا رغم كآبتي فمما يسعدني ان ابقى هنا ويداي في جيبي انظر الى هذه الطيور وأستسلم للكآبة .

ولكن يد الادارة امتدت فجأة الى كتفي ، وسمعت صوتا يقول :

ـ اتبعني !

صفعتني هذه اليد وهي تحاول ان تجرني ، فقاومتها وتملصت منها ثم قلت بهدوء : ـ انت مجنون .

فقال الرجل الذي كان مايزال غير مرئي : ـ حذار ايها الرفيق .

فأجبته : ـ سيدي .

فصرخ غاضبا ! ـ ليس هناك سادة ، فنحن جميعا رفقاء .

وانتصب آنذاك قربي وتفحصني بالحاح حتى ان نظرتي قطعت عليه بطالته السعيدة : ففاض في زوج من العيون الشريفة . وكان لهذا الرجل وقار دابة لم تأكل منذ اعوام طويلة الا نوعا واحدا من العلف هو الواجب اليومي .

وتجرأت ان أسأله : ـ وما السبب ؟

فقال : ـ انه لسبب كاف جدا : فوجهك كئيب .

ففهقهت :

ـ لا تضحك !

كان غضبه حقيقيا . لقد خيل الي اول الامر ان مايضجره انه لم يستطع ان يلقى القبض على بعض البغايا اللواتي لا يحملن ترخيصا ، او على بحار متسكع او محتال او لص . ولكن لا ، فقد كان الامر جدا ، وكان في نيته ان يوقفني .

ـ تعال !

سألته بهدوء : ـ لماذا ؟

وقبل ان اتمكن من القيام باية حركة كانت يدي قد احيطت بقيد صغير : لقد انتهى الامر وادركت ذلك فورا . التفت للمرة الاخيرة نحو النواويس النائمة ، والسماء الجميلة الفضية . وحاولت بقفزة مفاجئة ان ارتمي في الماء . فقد كنت افضل ان اموت وحيدا في هذا السائل الاسن على ان اختنق بمرافقتهم في مسالكهم ، او بالعودة الى السجن . ولكن الشرطي اعادني اليه بحركة سريعة ، ولم يكن ثمة من سبيل للهرب منه .

سألته مرة أخرى : ـ لماذا ؟

ـ ان هناك قانونا يقضي بأن تكون سعيدا .

فصرخت : ـ انا سعيد !

قال وهو يرفع رأسه : ـ ان وجهك كئيب ..

فاحتججت بقولي : ـ هذا قانون جديد .

ـ لقد ظهر منذ ست وثلاثين ساعة ، وانت تعلم ان كل قانون يطبق بعد اعلانه باربع وعشرين ساعة .

ـ ولكنني اجهل هذا القانون ..

ـ ان الجهل لايدفع عنك العقوبة . لقد اعلن هذا القانون للشعب قبل البارحة عن طريق جميع مكبرات الصوت والصحف ، اما الذين لايستفيدون من الصحف والراديو ـ ورمقني بنظرة احتقار ـ فقد وزعت في جميع شوارع « الرايخ » نشرات في هذا الموضوع . ايها الرفيق سنرى جيدا اين امضيت هذه الست والثلاثين ساعة الاخيرة.

وقادني ، لم اكن قد شعرت حتى ذلك الحين بان الجو بارد ، وبأنه ليس لدي معطف وبان جوعي الملحاح كان يزمجر في اعماق معدتي . وفي هذه اللحظة فقط ادركت ايضا انني متسخ الجسم ، غير حليق الذقن ، ممزق الثياب ، وان هذه الاشياء ليست في صالحي ، فهناك قوانين تجبر كل الرفاق ان يكونوا نظيفين وحليقين ، سعداء وشباعا ، دفعني الشرطي امامه كانني « لعين » يجب ان يفارق موطن احلامه ليمضي الى اطراف الحقول وقد اقتنع بمقدرته على الطيران ، كانت الطرقات مقفرة والمخفر قريبا . كنت أتوقع ان يجدوا طريقة ليلقوا القبض علي من جديد. ولكنني كنت آنذاك حزين القلب وانا اجتاز الحي الذي امضيت فيه طفولتي وقد كنت عقدت العزم على رؤيته بعد زيارتي للمرفأ : لقد اختفت البساتين التي كانت فيما مضى مليئة بالحشائش ، وجميلة بالغوطة التي تعملها ، وبمسالكها المغطاة بالعشب ، كان كل شيء قد سوي ونظف ، وقص في زوايا مستقيمة ، وكانت جمعيات وطنية تأتي الى البساتين ايام الاثنين والاربعاء والسبت لتتمرن على العرض . كانت السماء والهواء وحدهما يذكرانني بالايام المنصرمة ، بالايام السعيدة ، التي كان قلبي فيها يقتات بالاحلام .

لمحت هنا وهناك خلال مروري ان عدة مؤسسات للغرام قامت الى جانب العلم الرسمي الموضوع لارشاد الذين سيفيدون هذا الاربعاء من منح الصحة الجنسية ، كانت هناك ايضا عدة مقاه تتزين برمز جديد للمشروبات . كما كانت عدة مقاه قد تزينت بشارات المشروب الجديد وهو عبارة عن كأس من المعدن ذات خطوط ملونة بالوان الرايخ : أسمر فاتح ، واسمر قاتم ، واسمر فاتح . واغلب الظن ان الفرح كان يغني في قلب الذين راحوا يرشفون البيرة التي وهبتها الدولة للمواطنين ممن ظهرت اسماؤهم في اللائحة الرسمية .

كان كل الناس الذين تقابلهم يتنفسون الحمية.فقد كانوا وكأنما احاط بهم سائل خفيف يشهد بمجدهم في العمل . وكان منظر الشرطي مما يزيد في شحذ عزائمهم : فكانوا يحثون خطاهم ويتخذون مظهر المواطنين

الشاعرين بواجبهم اعمق الشعور . وكانت النسوة اللواتي يخرجن من الحوانيت يجهدن في ان يلبسن تعبير الفرح الذي طلب اليهن الظهور فيه : فقد كان محتما عليهن أن يكن فرحات ، باشات ، اذ يلهرن مهارتهن في الطهي فيرفهن بغذاء طيب عن الرجال الذين يعملون في خدمة الدولة .

كانت اولئك النسوة يتجنبن الاقتراب منا بمهارة ، وكانت ظلال الحياة التي تنبجس لاتلبث ان تختفي بمجرد ان نقترب منها مسافة عشرين خطوة . فكانت احداهن تدخل مخزنا من المخازن وكانت الاخرى تستدير نحو احدى زوايا الشوارع او تتسلل الى بناية ما حيث تنتظر ،والقلب واجب ، ان تبتعد خطواتنا .

والتقينا مرة ، في ملتقى الطرق ، برجل من عمر ما ، وكان يحمل فيما بدا لي ، شارة المعلمين ، فلم يكن له من الوقت مايهرب فيه منا . فلما حيا الشرطي تحية نظامية ـ وذلك بان ضرب رأسه ثلاث ضربات رمزا للخضوع التام ـ اجتهد كل الاجتهاد في ان يتم واجبه المدني الذي يحتم عليه ان يبصق على وجهي ثلاث مرات وهو يتهمني « بالخائن القذر » صوب ذلك نحوي تصويبا جيدا ، ولكن حرارة النهار ايبست البصاق ولم يصبني الا بعض الرذاذ الصغير . واردت بحركة آلية ان امسح الرذاذ بكمي ، فكانت العقوبة لبطة على مؤخرتي ، ولكمة في منتصف عمودي الفقري . قال الشرطي بصوت هادىء « هذه هي المرحلة الاولى » وكان يعني بذلك انه يطبق العقوبة التي كان لكل شرطي الحق في ان يستعملها .

كان المعلم قد ابتعد مسرعا كما تمكن بقية المارين من تجنبنا . ومع هذا فقد كان هنالك امرأة تستنشق الهواء امام احدى « مؤسسات الغرام » وكان من الضروري ان يسبق هذا التمرين افراح المساء . وارسلت الي احدى النساء قبلة بيدها ، وكانت شقراء شاحبة اللون متورمة ، فعبرت لها بابتسامة عن عرفاني لجميلها ، فتظاهر الشرطي بانه لم ير شيئا البتة . ذلك بانهم كانوا يحرصون على ان يمنحوا اولئك النساء اللواتي كن ولا شك ، يستحقون العقوبات الكبيرة ، قبل اي رفيق اخر، شيئا من الحرية ، فتركوهن على هامش القوانين لانهن كن يساعدن بشكل مرموق على زيادة البشاشة في العمل . وكان هذا الامتياز قد اثبته الاستاذ لوتبو حامل دبلوم الدولة في العلوم الفلسفية والحائز على ثلاث شهادات دكتوراه واحد اعضاء جهاز الفلاسفة الرسمي ، فكان يقول : « ان الطريق المفتوح على التحرر الفكري هو امتياز ذو اهمية كبرى ! » كنت قد رأيت هذه المقالة امس ، حين جئت المدينة ، واذ توقفت في غرفة من غرف الحقول قرأت بعض صفحات الجريدة المزعومة ، المحلاة بملاحظات عميقة ، وربما كان المؤلف ـ وهو رجل زنديق حاذق في الاملاء ـ ابنا للمزارع الذي رأيته ..

كان الوقت قد ازف لكي نصل الى المركز ، فصافرات العمل تجأر ، والطرق على وشك ان تمتليء بموجة من العمال ، الذين تتسم وجوههم بفرح معتدل « وهذا الفرح يوضع فقط اثناء الخروج من المكاتب ، اما النشوة والاغاني فتدخر للطريق » والذين كانوا سيبصقون علي والحق ان الصافرات كانت تصفر قبل الخروج بقليل لان الدقائق العشر الاخيرة كانت مخصصة بالضرورة ، للقيام بزينة دقيقة ، متوافقة مع شعار رئيس الدولة الحالي « السعادة بواسطة الصابون » .

كان رجلان يحرسان مدخل مركز الشرطة ، وهو عبارة عن مكعب من الاسمنت ، فما كان من الرجلين الا ان طبقا اثناء مروري « العقوبة الجسدية » المذكورة في النصوص : فضرباني ضربة قوية بحرابهما على صدغي وقفزا فوهة مسدسهما على ترقوتي ، وذلك وفق مقدمة قانون الدولة رقم « ١ » : على كل شرطي ان يظهر امام كل من يقبض عليه انه احد ممثلي القوة العامة « ويستثنى من ذلك الموظف الذي يمارس القبض على غيره ، نظرا لانه يتمتع بحق يتيح له ان يقوم خلال الاستجوابات بتطبيق العقوبات الجسدية التي يراها ضرورية ».

لقد نص قانون الدولة رقم ١ على مايلي « لكل شرطي الحق في تقويم المذنب وان الواجب ليقضي عليه بذلك ، اذا كان الفرد متهما بجرم ومع ان كل رفيق ليس معيبا ، الا انه قابل لان يقوم .»

سلكنا ممرا طويلا عاريا ، قد ثقب بنوافذ واسعة وفتح باب من تلقاء نفسه ، وكان الحرس ولا شك قد اعلنوا عن قدومنا . كان قدوم كائن موقوف يعد حادثا غريبا في ذلك الوقت الذي كان فيه السكان جميعا مسرورين ومنتظمين وعاقلين ، يعمل كل منهم جاهدا كي يستعمل الصابون النظامي .

ثم دخلنا حجرة ، كان اثاثها الوحيد مكتبا قد جهز بهاتف وكرسيين فوجب علي ان اظل واقفا في منتصف الحجرة . نزع الشرطي عمرته وجلس .

لم يجر أول الامر شيء فهم يبدأون دائما على هذا النحو ، وهذا اسوأ ما في الامر . شعرت بان وجهي ينهار ، كنت متعبا وجائعا ، اما اخر اثر للسعادة ، ذاك الذي هيأته لي كآبتي العذبة فقد اختفى وكنت على علم بانني هالك .

جاء بعد عدة لحظات رجل ضعيف البنية ، شاحب اللون ، يرتدي ثوبا فاتحا ، كان مكلفا بالقيام بالاستجواب التمهيدي فجلس دون ان يتفوه بكلمة ثم نظر الي :

ـ مهنتك ؟

ـ لست الا رفيقا .

ـ ولدت في ؟

ـ اول يناير سنة ١٩٠١

ـ اخر وظيفة ؟

ـ سجين .

فتبادل الرجلان النظرات الخاطفة .

ـ مكان اخلاء سبيلك وتاريخه ؟

ـ البارحة في الكتلة ١٢ الزنزانة ١٣

مكان الاقامة المرخص به .

ـ هنا .

ـ الشهادة ؟

فاخرجتها من جيبي وقدمتها للموظف ، فربطها بالبطاقة الخضراء التي كان يملأها .

ـ سبب السجن ؟

ـ وجه سعيد .

تبادل نظرات جديدة بين الموظفين .

ـ اشرح الامر !

ـ لفت وجهي السعيد نظر احد رجال الشرطة ، في يوم كان فيه الحداد مفروضا ، ذلك بان رئيس الدولة كان قد مات .

ـ مدة العقوبة ؟

ـ خمس سنوات .

ـ سلوكك ؟

ـ سيء .

ـ معنى هذا ؟

ـ قلة النشاط في العمل .

انتهى !

آنذاك نهض هذا الموظف المكلف بالاستجواب التمهيدي وكسر لي ثلاثة اسنان . كنت موسوما باعادة ارتكاب الجرم الماضي ، وكان يعني هذا عقوبة غير عادية لم اكن أتوقعها . ثم خرج ليترك المكان لشخص كبير يرتدي ثوبا رماديا : وبدأ الاستجواب الحقيقي . كانوا جميعا يضربونني : الموظفون المكلفون بالاستجواب التمهيدي والاستجواب الاساسي، وقضاة التحقيق الاولون ورئيس قضاة التحقيق ، هذا بالاضافة الى العقوبات الجسدية التي يقرها القانون ويطبقها الشرطة ، لقد كلفني وجهي السعيد خمس سنوات من السجن ، اما وجهي الكئيب فقد كلفني عشر سنوات.

ساحاول الا يكون لي وجه على الاطلاق ، هذا اذا ظللت على قيد الحياة عشر سنوات من سني السعادة بواسطة الصابون !

ترجمة : جورج سالم